

## منطلقات اقتران الثنائية الثقافية الحضارية

## The starting points of cultural dualism

بلبول نصيرة<sup>1</sup><sup>1</sup> جامعة زيان عاشور - الجلفة (الجزائر)، الإيميل nacerabelboul@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/08/21 تاريخ القبول: 2020/11/05 تاريخ النشر: 2020/ 11/09

**Abstract:**

We often find during the reading or discussions of the concepts of culture or civilization within the same context, which may suggest to us that they have the same connotations and meanings and this convergence continues in the daily circulation of the two concepts across different councils and positions, and in this sense we try to clarify the intersections between each of culture and civilization and we are working to determine their contents by tracking the various historical stages of their formation.

**Keyword.**

Culture, civilization, convergence, intersections, ideology

**الملخص:**

كثيرا ما نجد أثناء قراءتنا أو نقاشاتنا تداول لمفهومي الثقافة أو الحضارة ضمن نفس السياق مما قد يوحي لنا أنهما يحملان نفس الدلالات والمعاني ويستمر هذا التقارب في التداول اليومي للمفهومين عبر مختلف المجالس والمواقف، ومن هذا المنطلق نحاول توضيح التقاطعات الموجودة بين كل من الثقافة والحضارة ونعمل على تحديد مضامينهما بتتبع مختلف المراحل التاريخية لتكوينهما إلى غاية الصقل الإيديولوجي الذي يحملانه.

**الكلمات المفتاحية:**

الثقافة - الحضارة - التقارب - التقاطعات - الإيديولوجي

## تداولات تدرس التوافق المفاهيمي

إن محاولتنا في ضبط المفاهيم يضمن لنا تحديد المعاني ومدلولاتها وبالتالي يمكنه تحديد وظيفة كل واحد منها ضمن المعادلة المركبة التي تجمع بين الثقافة والحضارة، ويُعتبر التداخل المفاهيمي التاريخي لكل من مصطلحي الثقافة والحضارة لافتاً ، وضرورة التدقيق في مضامينها وكيفياتها ، والمعنى المعطى بالمثل لكلمة ثقافة يرتبط بمعرفة) بيار و ميشال، 2006 ، صفحة(224 عامة قد تكونت في البدء حول فكرة تثقيف الروح لدى القدماء التي تجذب الثقافة نحو الأمور الروحانية إلا أن الأنثروبولوجيا الثقافية لم تكتف بتوضيح التعريف التجريبي لتابلور، بل أولت اهتمامها لإحدى الميزات الأساسية للثقافة، هي قابليتها للتناقل وهكذا إكتسبت معناً قريباً من معنى الحضارة .

بلغ التقارب بين كل من مفهومي الحضارة والثقافة (BOUZAR, 1982, p. 58) إلى حد أنه قد يصعب التفريق بينهما ومن أبرز من تخطى عن البحث في إيجاد الفروقات بينهما لعدم ضرورة ذلك ، تابلور، مالينوفسكي ، ألبرت شيفستر، هكسلي، جاكوير ستيرون ، راد كليف براون، سوروكين ، لكن اتجاه هذا الزخم من العلماء نحو المطابقة بين مفهومي الحضارة والثقافة لم يقض على محاولات مهمة لضبط المفهومين ، مثل الألماني روبرت ماكيفر 1882-1970 الذي يعتبر أن الحضارة تحمل في دلالتها عملية تحسين المؤسسات والتشريع والتربية، ويمكن للحضارة أيضاً أن تشمل كل الشعوب التي تتكون البشرية منها مع وجود تفاوت بين الشعوب في هذه الحركة، وبلغ بعضها كفرنسا درجة عليا من التقدم ، الذي يمكننا من اعتبارها شعوباً متحضرة، الحضارة تشير إلى الترفيه الجماعي باعتبارها حالة وعملية فعل هي حالة المجتمع التي يمكن أن نقول عنه أنه متحضر، ووصل إلى درجة عليا من التنظيم السياسي التشريعي والتربوي تميزه عن المجتمعات التي لا تزال تعاني من الجهل والعنف...

كلمتي ثقافة kultur وحضارة bildun استخدمتا حتى عهد قريب بمعنى واحد، ويقول في ذلك ألبرت شيفستر في كتابه فلسفة الحضارة (الكريم و وآخرون، 2010 ، صفحة(164) ، أن الألمان يستعملون عادة كلمة kultur والفرنسيون كلمة civilization لكن ليس ثمة مبرر لغوي وتاريخي لوضع تفرقة بين الكلمتين ويتضح ذلك من التعريف الذي يقترحه حيث يقول عن الثقافة أقصد بالثقافة الإنسانية، وأنا أرفض هذا التمييز بين الحضارة والثقافة ، كل ما أمكن للحياة البشرية أن ترتفع على طريقة فوق الشروط الحيوانية وأن تتميز به عن حياة البهائم.

أما في إنجلترا لم يحاول " توماس أليوت " (1888م-1965م) أيضا أن يضع الحدود بين معنيي هاتين الكلمتين، وقد انتهى في كتابه ملاحظات نحو تعريف الثقافة الصادر عام 1948م إلى نتيجة، وهي أن أي محاولة كهذه لا يمكن أن تنتج إلا تمييزا صناعيا، لكن هذا التوحيد بين المصطلحين لم يمنع حدوث خصومة بينهما، وعلى نحو " تيري ايجلتون " في كتابه فكرة الثقافة والذي ركّز على ربطها بالجانب الديني، ويعد المفكر الألماني " فلهم فون همبولدت " أول مسؤول عنها .

### بوارد الفصل بين المفهومين

الحضارة (بيار و ميشال، 2006 ، صفحة 446) هي إذا نتيجة ولكنها أيضا أفق لا يكف عن التراجع، من هنا كانت الأزواجية الخاصة بهذه العبارة التي قد تتخذ معنى مختلفا جدا، وحتى متناقضا تحسب استعمالها بصيغة الفرد أو الجمع، فنحن نقيم الحضارات (تشكيلات تاريخية فريدة) باسم الحضارة (كمثال) لقد ازدادت هذه الأزواجية لاحقا ، كلما اتسعت فكرة الحضارة وأصبحت نسبية يبقى الغرب دائما بشكل واضح أو مضمر، هكذا باتت (الحضارة) الجامعة مرادفة للثقافة (بالمعنى التقني للعبارة) وبهذا المعنى يستمر علماء الآثار باستخدامها بينما يميل الانتولوجيون إلى تجنبها مفضلين عليها عبارة الثقافة .

يمكننا القول أن شعب ما يتمتع بقليل أو بكثير من الحضارة على الأقل حتى زمن موريس باريس 1862-1923 Barres الذي يظهر انعطاف الثقافة نحو مفهوم جماعي حيث أن الثقافة شخصية بينما الحضارة اجتماعية عالمية ، ودون في مؤلفه كراسات عام 1898م ، هناك أوروبا في طور التكوين بجوار وخارج أوروبا الخاصة بالدبلوماسيين ، والتي بقت على حالها منذ معاهدة ويستفاليا، وهناك أوروبا تتكون بفعل المؤتمرات والثقافة المشتركة... الخ

يوجد تأثيران حددا تطور لفظ ثقافة، التأثير الأول هو التأثير الألماني حيث استخدم لفظ kultur منذ بداية القرن التاسع عشر مضاد للفظ حضارة ، ففي حين كانت فكرة الحضارة مشبعة بالفكر الكلاسيكي وعصر التنوير وبمفهوم فلسفي للجنس البشري أساسه العالمية والتقدمية ، فالثقافة في المفهوم الألماني تتسم بالجماعية والعمق والأصالة والشعبية في حين أنّ الحضارة تكتسب وهي مصطنعة بل مرهقة وأرستقراطية، مثل القواعد الاجتماعية الراقية ، الثقافة هي روح الجماعة تمتد جذورها في تقاليدنا في فلها الفلكلوري وفي أساطيرها، فالثقافة

تساعد على التباين ، فعندما توجد مجموعة ما فإنها في الوقت ذاته تفصلها عن الآخرين . أما التيار الثاني فهو التأثير الانجليزي أو الأمريكي ، لقد استخدم علماء الأنثروبولوجيا ثم علماء الاجتماع لفظ ثقافة للدلالة على مجموعة القيم والمظاهر لدى مجتمع ما ، بالإضافة إلى أساليبه في التفكير والحياة بأسلوب علمي ، هنا نبتعد عن فكرة التقدم التي تفترضها الحضارة كذلك عن فكرة الروح المشتركة التي يحملها اللفظ الألماني kultur ثقافة .

ذهب المؤرخ لوسيان فيفر (كوبر، 2008، صفحة 37) Lucien febor إلى أنه لكي نعيد بناء تاريخ اللفظة الفرنسية civilisation حضارة سيكون من الضروري إعادة تركيب مراحل أعمق الثورات تأثيراً ، والتي مرت خلالها الروح الفرنسية منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى يومنا هذا، وكان هذا هو الموضوع الذي اختاره لمحاضراته في ندوة عقدت نهاية الأسبوع والتي ألقاها في سنة 1929م تحت عنوان : " الحضارة اللفظة والفكرة - civilisation mot et l'idee " ، ولم يتمكن فيفر من العثور على مصدر استخدام لفظة civilisation بأي من المعنيين الحديثين قبيل سنة 1766م ، وفي ما سبق ذلك كانت اللفظة تستخدم فقط بوصفها مصطلحاً تقنياً قانونياً يشير إلى تحويل المحاكمة الجنائية لمجرم إلى قضية مدنية ، ومع ذلك فإن ألفاظاً مثل civilite متحضر ، و politesse مهذب ، و polic بمعنى إطاعة القانون تعود إلى القرن السادس عشر ميلادي ، وعلى مدى القرن السابع عشر ميلادي شاع استخدام لفظة sauvage وحشي و barbarian بربري بالنسبة إلى الناس الأكثر تحضراً في اللغة الفرنسية لوصف أولئك الذين يفتقرون إلى التحضر والكياسة ، ومع مرور الوقت حلت لفظة civilise متحضر محل لفظة police مطيع للقانون ، ولكن مع حلول القرن الثامن عشر ميلادي يقترح فيفر أنه كانت هناك حاجة إلى مصطلح مستقل جديد لوصف مفهوم جديد ، وفي السبعينات من القرن 18م تمكنت اللفظة الجديدة سنة 1798م من اقتحام أبواب قاموس الأكاديمية الفرنسية ، وقد لاحظ فيفر أن الاختلاف في المفهوم قد تطور في ألمانيا ففي بادئ الأمر كان المفهوم الألماني للثقافة مشابهاً جداً للفكرة الفرنسية عن الحضارة ولكن مع مرور الوقت بدأ يحدث تمييز بين الزخرف الخارجي للحضارة والواقع الروحي الداخلي للثقافة . يتجه بعض علماء الاجتماع والانتروبولوجيا في الوقت الحاضر إلى الفصل بين مصطلحي الثقافة والحضارة ، ذلك يجعل الأول قاصراً على بعض مظاهر الحياة الاجتماعية مثل الدين والفن والأدب والغايات الأخلاقية القصوى ، وبهذا المعنى تصبح الحضارة (غيث، 2006 ،

صفحة(54 هي ذلك الميكانيزم الكلي والتنظيم الذي أنتجه الإنسان في محاولته للضبط والتحكم في ظروف حياته ، وهو لا يشتمل فقط على أنساق التنظيم الاجتماعي بل الأدوات والوسائل الفنية المادية.

### مؤشرات توظيفات المفهومين

كتب نوربرت الياس (كوبير، 2008، صفحة(44 (1897م-1990م)الألماني كتاب بعنوان عملية التحضر عن العلاقات بين المفهوم الألماني للثقافة والمفهوم الفرنسي عن الحضارة، ففي التقليد الفرنسي كان ينظر إلى الحضارة ككل معقد ومتعدد الزوايا يتضمن حقائق سياسية واقتصادية ودينية وتقنية وأخلاقية واجتماعية، ولكن الألمان ينظرون لها كأمر خارج ونفعي له عدة أوجه، غريب عن قيمهم الوطنية، وتمضي الحضارة قدما مع مرور الزمن وتتجاوز الحدود الوطنية على العكس من الثقافة المحدودة في الزمان والمكان والمتداخلة في الهوية الوطنية. إن استغراق الألمان واتساع دائرة اهتمامهم بالثقافة ومفهومها الذي تحلى بالصيغة القومية الألمانية مكن من ترسيخها أكثر، فتبني طبقة النبلاء والمتقنين مفهوم الثقافة ليعبروا به عن القيم الروحية التي يشملها العلم والفن والفلسفة والدين لتتكون طبقة الانتلجانسيا الذين حاولوا من خلال خلق الخصوصية والتميز وانتزاع الاعتراف بهم في المجتمع الألماني، أما مفهوم الحضارة فقد كان معروفا بالطبقة الأرستقراطية ، حيث كان اهتمامهم منصبا على مظاهر حياة البلاط والمجاملات البعيدة في نظرهم عن أي عمق فكري، و بهذا فإن اتساع الهوية بين الطبقتين الانتلجانسيا المثقفة والبرجوازية المتحضرة أصبح أكثر وضوحا.

لقد سمحت هذه المفارقة بإعطاء معايير محددة لكل من الثقافة والحضارة ، ومع تنامي (كوش، دت، صفحة(17 الشعور بالقومية الألمانية أمام المتغيرات السياسية و الاقتصادية في أوروبا، والتي كان أولها قيام الثورة الفرنسية ، تحول مصطلح الحضارة تدريجيا ليعبر به في ألمانيا عن فرنسا وكل القوى الغربية الأخرى ، لأنها تضمنت دلالات مادية تعبر عن التغيرات والتطورات، أما كلمة ثقافة تحولت من مفهومها المعبر به على طبقة المثقفين والانتلجانسيا الألمانية وهو مفهوم ذو بعد ذاتي Particulariste لأنه ينطلق من زاوية ضيقة حيث يُعطي له ولغيره نفس التصنيفات ثم يرى في الآخر نقصاً يجعل منه أقل درجة ، عكس العالمية التوحيدية Uniformisant التي نودي بها أثناء عصر الأنوار، لأنها تؤدي للفقر

والامبريالية الثقافية، ويرى يوهان غوتفريد هردر 1744-1803 الألماني الرائد في معالم المفهوم النسبي للثقافة أنه لكل شعب ثقافته الخاصة التي يمكن من خلالها أن يصمد. في فرنسا قدم كوندرسيه في كتابه أفكار في فلسفة تاريخ البشرية 1785م- 1892م ملاحظات وجيهة حول مفهوم الثقافة، وباستثناء آراء سان سيمون فإن الفكر يبدو في ذلك الحين أكثر اهتماما بالإبداع المدرسي أكثر من اهتمامه بالتحليل الفلسفي وبالنواحي الاجتماعية ، والملاحظ أن ليدر LITRE في معجم اللغة الفرنسية كان مقتضبا في صور الثقافة ، ولم يقرر المجتمع الفرنسي المعنى المجازي لكلمة ثقافة إلا في طبعة المعجم لسنة 1978م ، أما طبعة 1935م فقد تجاهلت المصطلح تماما.

إن تأثير كلمة الحضارة على فرنسا ظهر في ترجمة الكتب ، إذ تم ترجمة كتاب تايلور الثقافة البدائية إلى الحضارة البدائية ، فبرغم من أن عنوان الكتاب حمل كلمتين متناقضتين في الظاهر إلا أن تايلور عرّف الثقافة في السطر الأول بتعريفه الشهير، ولا شك أن نظرية تايلور مثلت تصورا شاملا وجزئيا بل وثوريا لمفهوم الثقافة ، وأيضا كان الأمر لكتاب روث بندكت Paterns of culture سنة 1950م أي عينات حضارية ، وقام ايميل دركهايم (رشوان، 2006، صفحة 140) بتعريف الحضارة على أنها مجموعة من الظواهر الاجتماعية التي لا ترتبط بهيئة اجتماعية خاصة ، وتمتد هذه الظواهر إلى مجالات تتجاوز أي أرض وطنية أو أنها تتطور على مراحل زمنية تتجاوز تاريخ المجتمع الواحد ، وبهذا التعريف أعطى للنظرية الانتشارية Diffusionniste المجال الجغرافي ، وللنظرية التطورية مفهوم الحفبة أو المرحلة ، وأفاد أن الحضارات هي منظومات مركبة ومتضامنة.

لقد تطور مفهوم الثقافة الألماني (كوير، 2008، صفحة 140) من خلال الجدل مع مفهوم الحضارة الكونية الذي ارتبط بفرنسا، فما نظر إليه الفرنسيون على أنه حضارة أممية اعتبره الألمان مصدرا للخطر على الثقافات المحلية المميزة. هذا الاختلاف المفاهيمي جاء متماشيا مع الخلاف الإيديولوجي كما أنه تضمن محاولات لإضفاء صبغة معينة على المفاهيم والتّمكّن من تداولها لعكس صبغة معينة تعمل على تمهيد الأرضية لبث ما يتناسب مع سياسات وأفكار كانت سائدة .

### الاختلافات تصنع خصوصيات مفهومي الثقافة والحضارة

اقترب لفظ الحضارة من لفظ الثقافة إلى حد صعب التمييز بينهما، نظرًا لتشابه الخصائص وتشابكها ، لكن يمكن أن نحاول أن نحدد الفارق في جزئية بين المفهومين على أساس أن الثقافة تعني المحصلة الكلية للتراث الإنساني والاجتماعي سواء كان هذا التراث مادي أو غير مادي ، أما لفظ حضارة فتشير إلى نسق خاص منظم من الانتاجات أيضًا مادية ومعنوية ، تتميز بالشمول والاستمرارية ، لا يحده شعب أو سلالة أو إقليم معين بخلاف الثقافة التي تأخذ شكلًا معينًا ضمن مجال معين وتطبعه ، وعلى ذلك فالحضارة أشمل وأعم من الثقافة ، حيث يمكننا التحدث عن الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية وغيرها، لكن في المقابل يصعب الحديث عن ثقافة إسلامية أو ثقافة غربية دون الإشارة إلى الخصوصيات التي تصنعها الثقافة، فهي تصنع الخصوصية والتميز للمجتمع ، وتصل إلى وضع هذه الخصوصية حتى داخل المجتمع الواحد.

لقد صاغ ماثيو آرنولد\* العبارة الأكثر تأثيرًا عن التعارض بين قيم الحضارة وقيم الحضارة الحديثة ، فالحضارة الصناعية اتسمت بأنها ميكانيكية وخارجة إلى حد أكثر بكثير من حضارة اليونان أو الرومان ، وهي تتجه بشكل ثابت إلى المزيد من ذلك ، ويقنع الهمج بالتقدم المادي الذي تقدمه الحضارة ، كما أنه يرى في الثقافة أنها تأمل هؤلاء الناس لأسلوب حياتهم وعاداتهم وسلوكياتهم ونبرة أصواتهم..... وغيرها. فقد زكى الثقافة (ستوري، 2014 ، صفحة 44) باعتبارها مساعدًا كبيرًا لإخراجنا من صعوباتنا الحالية ، المتمثلة في مطالب وحقوق الطبقة العاملة والاعتراف بتطور العملية التاريخية وتطور الرأسمالية الصناعية ويرى ماثيو آرنولد أن التعليم هو الطريق إلى الثقافة ، وأن مدارس الطبقة العاملة لا تعدو أن تكون أكثر من مراكز

\* وهو انجليزي ولد سنة 1822 وتوفي سنة 1888 ، كان شاعرًا وناقداً وكاتبًا ومصلاً تربويًا ، وقد اهتم والده قبله بهذا الشأن ، وتتوعت كتاباته بين الأدب و التاريخ والسياسة واللاهوت والعلم والفن ، وركز على أعماله على وضع الإنسان الغربي المعاصر الذي يواجه الحياة من غير دين .

متقدّمة للحضارة في قارة مظلمة لبربرية الطبقة العاملة فهي تمدّن الجوار حيثما توضع ، وحسب رأيه يجب تمدين أطفال الطبقة العاملة قبل أن يكون بالإمكان تعليمهم ، فللدولة مصلحة في المدرسة الابتدائية كعامل حضارة حتى قبل منفعتها بها كعامل تعليم ، ووظيفة الثقافة أن تحقق ذلك لهذه الفئة .

يضع ماثيو آرنولد فرقاً واضحاً بين المتحضر وغير المتحضر، ويرى أنّ الثقافة بإمكانها تحقيق الموازنة من خلال استثمار المؤسسات التعليمية في ذلك وحصر من الثقافة ما نعرفه اليوم "اللايتكيت" الذي تجانس حسه مع الحضارة ونموها.

من خلال ما سبق تناوله بخصوص مفهوم الثقافة نجد أنه من المفاهيم الضاربة في أعماق تاريخ الفكر الإنساني خصوصاً وأنه مفهوم لصيق بتعابيرنا ولغتنا ، فعلاقة الثقافة بالمجتمع هي علاقة تلازمية ، بحيث لا يمكن تصور أحدهما بمعزل عن الآخر ، فكل منهما يعتمد على الآخر اعتماداً متبادلاً بحيث لا يستطيع أي منهما أن يشكل كيانا عاملاً وفاعلاً بغياب الآخر ، نجد أنه على قدر كثافة تناول هذا المفهوم وعلى قدر تداول العلماء في دراسته، يصعب علينا الخوض في تحديد ماهية، فهو يحمل من الأهمية ما جعله محط اهتمام عدد من الباحثين لا يُستهان به ، وهذا ما قد يبرر تعدد المفاهيم ، غير أن السواد الأعظم من الدارسين لموضوع الثقافة رشحوا تعريف ادوارد تايلور باعتباره أكثر التعريفات المأمواً وتشريحاً للمفهوم ، بقوله أنها ذلك الكل المركّب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون ، وكل القدرات والعادات الأخرى، التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع. وهو يعطي بذلك للثقافة صفة الكليّة والتركيب والشمول والاكْتساب ويُعطي دوراً للتشئة والمجتمع ، من حيث كونه مصدرًا لها . ورغم أهميّة هذا التعريف وقيّمته العلمية إلا أنه نال نصيباً من الانتقادات (الداوي، 2013م، صفحة 23) لكونه وصفي وعام جداً ، وأنه لا يأخذ في الاعتبار الطبيعة الدينامية للظاهرة الثقافية ، كما أنه لا يولي اهتماماً كبيراً لطبيعة العلاقات النوعية التي تربط ثقافة معيّنة ببيئتها وبالمجموعات البشرية التي تحملها وتنتمي إليها.

رغم ما لأهمية تعريف تايلور بخصوص مفهوم الثقافة ، إلا أنه يعبر في عداد العلماء الذين لم يطرحوا الفروقات بين الثقافة والحضارة ، وفي إسناد يدعم هذا التّيار نجد أنّ فرناند بروديل (الداوي، 2013م، صفحة 25) يرى أنّ اللفظان يعبران معاً عن مركب واحد من الظواهر الاجتماعية ويمكن النظر إليه من وجهين: وجه مادي ملموس يتعيّن في المستوى الذي بلغه



التقدّم العمراني والتكنولوجي عند أمة من الأمم ، أو في مجتمع معين وفي حقبة تاريخية محددة وكذلك في العلاقات الاجتماعية والعادات والمعتقدات وفي المؤسسات وأنظمة الحكم . ووجه مادي ثان يتجلى في نواحي الإنتاج الأدبي والفني والفكري والعلمي ومعالم الرقي الأخلاقي والروحي.

### مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي

تناول مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي تحديدا يعود إلى كونه من المهتمين بدراسات موضوع الحضارة وهو يعتبر الثقافة عنده (ميلاد، 2010، صفحة 79) مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه. وهي تتشكل طباع الفرد وشخصيته والمحيط الذي يعكس حضارة معينة، ويتحرك في نطاقه الإنسان المتحصّر. وفي هذا التعريف يضم مالك بن نبي فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي مقومات الإنسان ومقومات المجتمع.

تاريخ مسار تكوين المفهوم ارتبط بمعنى زراعة الأرض والعناية بها لتتحول إلى المصطلح الأكاديمي الذي نعرفه ، فهو مفهوم يتضمن التنشئة و التربية والأخلاق والقيم والعادات والدين والفن وكل نشاطات الإنسان تقريبا، خاصة تلك التي تسير به نحو نمط معين في حياته من خلال أسلوب حياته والتي تبدأ في علاقته الأولى بالطبيعة وهذه الانطلاقة كانت واحدة من الأسباب التي ساهمت في وجود دراسات عديدة حول علاقة الطبيعة بالثقافة، ودون الخوض كثيرا في المفهوم الذي كان محل صراع إن صح التعبير بين الألمان والانجليز والفرنسيين في محاولتهم تبني المفهوم وفق ايدولوجياتهم...بسبب صراع تاريخي إيديولوجي حاول الألمان من خلاله تعميق الفكر القومي مقابل الفرنسيين الذين يقصدون أصحاب البلاط . فمالك بن نبي اعتبر (ابن نبي، 2000م، صفحة 10) أن مفهوم الثقافة ابتدأ بمراحل حيث كان في البداية عبارة عن حضور المفهوم الموجود في ثقافة الإمبراطورية الرومانية وفي ثقافة الحضارة الأثينية ، ليتحول هذا الحضور لكلمة ثقافة إلى وجود من خلال الواقع الأوروبي عامة والفرنسي خاصة باعتمادهم على حضارة الزراعة ، حيث أن العمليات التي تستخرج من الأرض خيراتها كالحرث والبذر والحصاد، لها دور في نفسية الإنسان الأوروبي وفي صياغة رموز حضارته ، فالزراعة هي العملية التي تضم بين دفتيها جميع العمليات السابقة باستعمال أسلوب الاستعارة ، لأنها

تحدد وتنظم إنتاج الأرض ومن هنا تم تشخيص وتصنيف الواقع الاجتماعي حيث تم إنتاج مفهوم جديد هو الثقافة .

المنتبع لمفهوم الثقافة يلاحظ غزارة تناول الغربي للمفهوم أمام الكتابات الإسلامية أو العربية القليلة والقليلة جداً، فرغم وجود الكلمة \*<sup>1</sup> واستعمالها إلا أنّ الخوض في المفهوم لم يكن بنفس الاهتمام عند الغرب، لذلك فإنّ تناول المفهوم هو مرتبط بما قدّمه الغرب، وعلى الصّعيد العربي تُعتبر مبادرة مالك بن نبي من خلال أعماله التي تتمحور في عمومها حول دراسة المفهوم، لتصبح أهم مرجع للمفهوم الحضارة والثقافة، مع أنّ موسى سلامة<sup>2</sup> يُعتبر أول من استعمل كلمة ثقافة كترجمة لكلمة culture في اللغة العربية الحديثة ، بالإضافة إلى استعمالات ابن خلدون للكلمة في مقدّمته الشهيرة . ولا يمكن بأي حال من الأحوال إرجاع قلة الإصدارات بخصوص ذلك إلى مفهوم الثقافة وتشعبه وغموضه وما إلى ذلك، وإنّما يمكن الاستناد كمبرر إلى غزارة البحوث الغربية للمفهوم ، واقتترانه في مرحلة ما بمفاهيم أخرى وعلى رأسها مفهوم الحضارة ، بالإضافة إلى أنّ بعث الدّراسات حول المفهوم جاء في فترة الإستعمارات الغربية في الوطن العربي الذي كان يعاني الضعف والتقهقر ، والتراجع أمام بداية المد الغربي على جميع الأصعدة فكانت هذه الفترة بداية تراجع وضعف للشعوب والأنظمة العربية ، أمام تقدّم وتطوّر للأنظمة الغربية ، ولعلّ غياب تناول المفهوم خير عنوان لذلك ،

\* وردت كلمة ثقافة في القرآن الكريم في عدّة آيات، مثل قوله تعالى : "واقتلوهم حيث ثقفتموهم" الآية 191 من سورة البقرة ، وقوله تعالى : "فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم" الآية 91 من سورة النساء ، وقوله تعالى : "ضربت عليهم الذلّة أين ما تُقفوا إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس" الآية 112 من سورة آل عمران.

+ كنت أول من أفسى لفظة الثقافة في الأدب العربي الحديث، ولم أكن أنا الذي سكّها بنفسه فإني انتحلتها من ابن خلدون، إذ وجدته يستعملها في معنى شبيهه بلفظة " كولتور " الشائعة في الأدب الأوروبي ، الثقافة هي المعارف والعلوم والآداب والفنون بتعلمها الناس وبتتقون بها ، وقد تحتويها الكتب ومع ذلك هي خاصة بالذهن. سلامة موسى: الثقافة والحضارة -

مجلة الهلال القاهرة - ديسمبر 1927م - ص 171.

كما ساهمت الدّراسات الإستشراقية والدراسات الأنتربولوجية والتي كان الغرب قاده فيها ، في فتح مجال أكبر وأوسع لتداول المفهوم ، الذي أصبح عنصرًا مهمًا وضروريًا حسب مجموع هذه المعطيات.

### الأثر التاريخي في الدلالة المفهوماتية للثقافة

شهد مفهوم الثقافة في العصور الوسطى تأويلا متميزا ربطه بالدين وبالموازاة للتعاليم المسيحية الكاثوليكية كان فيها الاهتمام بحياة العمل ، وكانت حياة التأمل تتيح بلوغ ما كان يعد ثقافي في ذلك الوقت ، وهو معرفة ما وراء الحياة ، ومطلب مقابلة الإنسان الله وجها لوجه في الصمت والصلاة وتلاوة النصوص المقدسة وقراءة آثار المفكرين الدينيين ، وبقيت كلمة ثقافة بدلالاتها الزراعية ، وتعني عبادة تلك الدلالة الزراعية المرتبطة بالزرع والتمر والإنتاج والمحصول و العناية بالأرض وسقوط المطر ونمو النباتات ....إلى غيرها من الإسقاطات والدلالات المستعارة .

عمق الدلالة التي يحملها مفهوم الثقافة والتقائه الدلالي والتاريخي مع مفهوم الحضارة لا يعني الاستغناء عن محاولة البث في ضبط كل مفهوم على حدى ، وتُعتبر دراسة عزّت بيجوفيتش في كتابه الإسلام بين الشرق و الغرب مبادرة جادة تسعى نحو ذلك ، عندما يعتبر أنّ هناك حقيقتان (ميلاد، 2010 ، صفحة 98) متعارضتان ارتبطتا بظهور الإنسان ، هما الأداة الأولى ، والعبادة الأولى ، و هما طبيعتين وتاريخيين للإنسان ، تاريخ هو دراما إنسانية ، تبدأ من المرحلة التمهيدية لوجود الإنسان في الجنة ، ثم تتطور خلال انتصار فكرة الحرية ، وتنتهي بيوم الحساب في الآخرة ، وهي الوازع الأخلاقي للتاريخ ، أما الثّاني فهو تاريخ الأدوات أو تاريخ الأشياء الذي ينتهي بالدخول في المجتمع الطبقي ، وقصور الطّاقة ، شأنه في ذلك شأن بقية العالم المادي ، هذان التاريخان لهما العلاقة نفسها بين العبادة والأداة ، وهي العلاقة نفسها التي بين الثقافة والحضارة . فالثقافة عنده تعنى بعلاقة الإنسان بتلك السّماء التي هبط منها ، وكل شيء في إطار الثقافة ، إمّا تأكيد أو رفض أو شك أو تأمل في ذكريات ذلك الأصل السماوي للإنسان ، فالثقافة تتميز بهذا اللغز وتستمر هكذا خلال الزمن في نضال مستمر لحل هذا اللغز . أما الحضارة فهي استمرار للحياة الحيوانية ذات البعد الواحد، والتّبادل المادي بين الإنسان والطّبيعة ، وهذا جانب من الحياة يختلف عن الحيوان فقط في الدرجة

والمستوى والتنظيم ووظيفة الإنسان هنا أن يتعامل مع سلع الطبيعة ، ويغير العالم بعمله وفقاً لاحتياجاته .

رغم أنّ محاولة عزت بيجوفيتش في كل دراسته تعمل على وضع الفوارق بين الثقافة والحضارة ، والتي يرى أنّه فرق جوهرية وعميق ، إلا أنّ دراسته لم تكتس الأهمية العلمية القوية ، وقد يرجع ذلك إلى منطلقه الميتافيزيقي ، واعتباراته الدينية التي صبغت طبيعة عمله ، والتي يبدو فيها التقسيم واضحاً بين المفهومين القائم على الدين ، إذ تقوم الثقافة عنده من خلال المعتقد الديني ، بينما تتجرد الحضارة من ذلك ويربطها بما سواه من لا دين (الإلحاد) وطبيعة ومكونات مادية ، وهو بهذا الاتجاه يمكن تصنيف تناوله إلى ما جاء به التيار الكلاسيكي الإنجليزي ، بخصوص ربط الثقافة بالدين.

فالثقافة كمفهوم تتضمن الانتماء وتكرس الهوية وتغذي الأنساق السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ، لنجد أنّ مفهوم الثقافة الذي اختصره البعض في كونه نمط حياة أو عيش أحجف نوعاً ما هذا المفهوم ، أو عبّر عن جزء منه فقط ، فهو يعكس تراكمات وخبرات توارثتها الأجيال وحملت مضامينها من أجل الحفاظ على الهوية والخصوصية والدوام والانتماء والمقدس بكل صوره وأشكاله فهي فكر (الكريم و آخرون، 2010 ، صفحة 152) وسلوك . بل يمكن اختصار تعريف الثقافة في كلمة واحدة هي الوعي (الكريم و آخرون، 2010، صفحة 152) ، وهو الإدراك السليم لما نفكر فيه أو نفعله ، وما يعبر عنه الآخرون أو ما يمارسونه، والوعي درجات كلما زاد تطوراً وكذلك الثقافة . وهذا الفكر فتح الباب أمام جدل جديد موضوعه الوعي والثقافة.

### الثقافة والإيديولوجيات

أخذ مصطلح الثقافة عدة مفاهيم وتعتبر رواسب الحقب الزمنية الماضية سبباً في هذا التعدد، فكان أولها رعاية الحقول وقطعان الماشية في اللغة اللاتينية ( mendras, 1978, p. 10) ، ظهر مرة أخرى عند الفرنسيين ويعني قطعة الأرض المزروعة ، ثم أضاف لها الإنجليز بعد ذلك معنى العبادة Culte وتكلم ماثيو أرنولد في كتابه Culture and Anarchy الثقافة والفوضى (مؤنس، 1978، صفحة 325) سنة 1869م أنّ الثقافة هي محاولتنا الوصول إلى الكمال الشامل عن طريق العلم بأحسن ما في الفكر الإنساني مما يؤدي إلى رقي البشرية ، وقال أنّ الدين من العناصر التي استعان بها الإنسان في محاولته الوصول إلى الكمال. وبعدما

كانت تعني عند الفرنسيين حالة تحول المفهوم إلى الفعل أي العمل من أجل خدمة الأرض Cultiver سنة 1718م ، ودخل مصطلح ثقافة معجم الأكاديمية (كوش، دت، صفحة14 الفرنسية ، وأصبح يلحق بها المضاف فيقال ثقافة الفنون ، وثقافة الأدب ، وثقافة العلوم...إلى غيرها. وبالتقدم تجردت كلمة ثقافة مما كان يضاف إليها وأصبحت تستعمل للدلالة على تكوين وترقية العقل ، أي انتقل المعنى من تهذيب الأرض إلى تهذيب العقل خلال القرن 18م ، واستعملت الكلمة في معجم الأكاديمية الذي يشير إلى حالة الإنسان المثقف الذي يكسب ثقافته ، يقابله الإنسان أو الذهن الفطري الذي لا يكسب ثقافته ، ليبدأ ظهور (رشوان، 2006 ، صفحة103) تعارض بين مصطلحين هما الفطرة التي هي ميزة الجنس البشري والتي تميزه عن الحيوانية ، فأصبحت هذه المفاهيم مقدمة لفلسفة عصر التنوير الفرنسية اللغة ، والإنجليزية المنشأ ، بالإضافة إلى الاعتماد على مصطلحات أخرى هي التطور ، التقدم ، التربية ، العقل . سمح هذا الاستخدام الواسع لمصطلح ثقافة أن يتخطى حدود فرنسا ليصل إلى ألمانيا التي حافظت على الكلمة kultur لكنها أعطت لمفهومها بعدا آخر ، وتبعاً لفلسفة التنوير (ميشو، 2006 ، صفحة323) تطابقت ثقافة جماهيرية وهوية ثقافية مع الحضارة ، ثم تحت تأثير الرومانطيقية والأنثروبولوجيا تطابقت مع ثقافات متعددة عضوية أو وظيفية ، وهكذا انسلخ المفهوم من التقاليد.

خلال العقدين 1970م- 1980م لاقى مفهوم هوية ثقافية رواجاً كرد فعل على الظروف السائدة حينها وعلى مبادرة هيئة الأمم المتحدة للثقافة والعلوم والتربية (مونس، 1978 ، صفحة326) ، التي برمجت ندوة سنة 1970م لمناقشة موضوع الحقوق الثقافية من حيث هي حقوق إنسانية ، نوقش فيها موضوع الثقافة من حيث هي حقوق إنسانية ، ونوقش فيها كل محاور الثقافة من تعريفها إلى ميادينها إلى مستقبلها ، ونشرت مناقشات هذه الندوة في كتاب أوجز آخر الآراء في معنى الثقافة ومضمونها.

ينتمي هذا المفهوم لعلم النفس الاجتماعي، حيث كان يدل على المشاركة الوجدانية الفردية لمجموعة ما ، حيث أن عدم تواجدها كان يشير إلى الأشخاص الذين يفتقدون إلى جذور ، ثم انتقل المفهوم بفضل المقاومة ضد الاستعمار والامبريالية والتميز العرقي الغربيين، فقد طالبت به أيضا الأقليات الاثنية للاستمرار في الحياة داخل حدود قومية ذات ثقل ، على هذا النحو

تحولت الهوية الثقافية إلى شعار نكسوه صبغة عدائية تجاه أمريكا في اليونسكو ، ثم لم تلبث البلاد الاستعمارية القديمة أن استخدمت هذا الشعار لحسابها الخاص ، استعادته أوروبا لحماية هويتها .

أعطت الهوية الثقافية الكلمة الجوهرية لمشروع الميثاق الثقافي الأوروبي الذي أعده المجلس الأوروبي في أثنينا عام 1987م ، وأصبح للمفهوم في الولايات المتحدة الأمريكية التعددية الثقافية إزاء حركة الهجرة المتعددة الثقافات .

يمكننا القول أن للبعد السياسي دور في بناء مفهوم الثقافة كان أبرزها أثناء الحرب العالمية وهي المرحلة التي لم يكتمل حينها مفهوم الثقافة ، إذ زاد عمق الصراع الإيديولوجي للمفهوم الذي كان محصورا في مفهوما ذاتيا ، ولم يسمح له بالخروج إلى مفهوم عالمي توحيدي ، فمثلا في فرنسا أصبح لكلمة ثقافة بعدا اجتماعيا بعدما كانت محصورة بتطور الفكر فقط ، وعكس مفهوم الثقافة الذي يعبر عن القومية الألمانية كان مفهوم الثقافة الفرنسية يحمل المعنى الجماعي ، أي أنهم يسировون من خلاله إلى وحدة الثقافة الإنسانية حيث يقول إرنست رينال (كوش، دت، صفحة19) إن من يرى نفسه في الأمة الفرنسية مهما كان أصله فإنه ينتمي إليها .

نجد أن مفهوم الثقافة تطور طيلة قرون من التفكير والدراسة والبحث ، فالمفهوم الذي أشتق من الفكر الإغريقي (بيومي، 2006، صفحة26) منح دلالة مطابقة ، وفي العصور الوسطى حدث تمايز المعنى المجازي للكلمة عن معناها الأصلي ، وفي القرن السابع عشر ميلادي تمكن بوفندروف من فصل نظام الطبيعة عن نظام الثقافة ، ويأتي بأول صياغة حديثة وفي القرن الثامن عشر ارتبط الفكر بمفهوم الثقافة ، أما في القرن التاسع عشر رفض هذا الإسناد وبدا أن كلمة ثقافة تكفي ذاتها بذاتها ، وفي أواخر هذا القرن بدأت تحتل العناصر الاجتماعية للثقافة الشخصية منزلتها إلى جانب العناصر الفردية ، وتم انتظار حتى منتصف القرن العشرين حتى يصبح مضمون الثقافة لا يفهم فهما عقليا وأدبيا فقط بل يتسع ليشمل قيما أخرى .

### التكامل الوظيفي بين الثقافة والحضارة

تعتبر الثقافة واحدة من أهم الأعمدة المؤثرة بالركب الحضاري وإسناد هذا القول لا يلغي مفهوم الثقافة أمام الحضارة ولا مفهوم الحضارة أمام الثقافة ، بل هو تصديق على خصوصية

المفهومين ، ويكفي أن نبدأ من حيث يتفق العلماء مثل " شبينجلر " و " توينبي " وهو كون الحضارة مرحلة لها بدايات ونهايات ، أما الثقافة فهي امتداد مرتبط بالوجود الإنساني ، وربما بهذا القول وجد من ربط الحضارة بالجانب المادي للإنتاج الإنساني والثقافة بالجانب اللامادي له ، قد يكون صحيحا لكن صحته تنتهي عندما نجد أنّ الثقافة متغيرة ولها جوانبها المادية واللامادية ، والحضارة هي الأخرى متنوعة وليس لها نموذج ثابت ، رغم مرحليتها التي تداول العلماء في طرحها .

الثقافة ترتبط بالحضارة وتساهم في تشييدها ، غير أن الحضارة بتدرجها الهرمي أو بمسارها الدائري تؤثر على الثقافة وعلى معاييرها وعلى مقوماتها ، فنشهد تغيرات ثقافية تعكس التطور الحضاري ، وربما تشهد تقوّض بعض العناصر الثقافية أمام المراحل المتقدمة للحضارة لتصبح لا تمثل إلا صورة لنمو حضاري ، وتتسع هذه المساحة في مراحل أخرى حسب عملية الحراك الحضاري ، فالحضارة تعكس الثقافة وتطبعها بخصائص معينة والثقافة تواكب الحضارة في جميع مراحلها ، الحضارة محدودة وإن كانت تسعى للاستمرارية إلا أنّها تخضع لدورة قد لا تكون مطابقة لما يعرضه العلماء والباحثون بالضبط ، لكن عمليات التغيير التي لا تضمن تقدمها تؤدي إلى زوالها ونهاية آجالها " إن مشروع حضارة مجهض قد يترك أثره في فرقة دينية أو طوباوية أو ثورة أو أثر فني ، لا يعقب نتيجة مباشرة ، وهو بالرغم من ذلك يبلور في ذاته مشروع حضارة (غارودي، 1999 ، صفحة 158) " لأنّ رتابتها واستقرارها بداية لاضمحلالها وتفهقها ، وهي أيضا أكثر شمولية ، أما الثقافة فرغم تغييرها وخصوصيتها إلا أنّها مستمرة ، هي علاقة كر وفر ورغم ذلك لم تكن علاقة صراع في جميع أطوارها ، وما تم تناول الصراع بينهما إلا من خلال بعض الطروحات الإيديولوجية التي تحمل الصراع في ثناياها .

إن طرح مفهوم الثقافة هو استكمال لمفهوم الحضارة، هذا فضلا عما يحمله مفهوم الثقافة من دلالات تعكس الإنسان في محاولاته لممارسته إنسانيته ، فهي علاقة متوازية يصادفها الكثير من التقاطعات، الثقافة طريقها مستمر ومفتوح بحكم الاستناد في مقوماتها على خصائص إنسانية، وليس الأمر مختلف في الحضارة لكنها في الأساس تركز على الجهود الإنسانية من إنتاجات وإبداعات مادية، وسياسية إيديولوجية إستراتيجية متفوّقة تُبث ضمن

قالب مجتمعي، استمراريته مرهونة بمدى صلاحيتها وفعاليتها، ليست كالثقافة المستمرة باستمرار الإنسان في نجاحاته وانتكاساته وكل نشاطاته دون تصنيف وهنا الاختلاف الجوهرى بينهما.

إن مصدر جدلية العلاقة بينهما يكمن في تغيّر الثقافة هذا التغيّر الذي يعتبر خاصية فيها مستمرة وإن اختلفت وتيرته ، و في الحراك الحضاري الذي لا يمكن إنكاره و لا يمكن الفصل في أمره ، لأنّه قد يحمل معه تطوّرًا واستمرارًا ، وقد يحمل أيضًا تحللاً وزوالًا .

### خاتمة

إن تجذر مفهوم الثقافة في حياة الناس فرادى وجماعات جعله محل الكثير من الجدل وحتى الصراع ، كما أصبح للمفهوم الكثير من الثنائيات أهمها وأقدمها الثقافة و الحضارة ، فلا يمكننا تناول موضوع الحضارة وإغفال الثقافة بأي شكل من الأشكال أو العكس ، فقد تأرجح مصطلح الثقافة بين الكثير من التشابهات والاختلافات التي تعكسها الإيديولوجيات الفكرية من خلال تحديد المفهوم وتناوله ، كما أن المصطلح عاصر حقبا زمنية عاشت سياسات وأزمات تأثر بها ، بالإضافة إلى كون الثقافة جزء لا يمكن فصله عن المجتمع ، ولا يمكن للمجتمع الاستمرار دون ثقافة فهما وجهان لعملة واحدة.

لقد سمحت هذه الارتباطات بظهور تعقيدات في المصطلح من جهة ، ومن جهة أخرى أنتجت لنا مفاهيم ومصطلحات من شأنها أن تساهم في دراسة وتحليل واقعنا ، ولعل اعتماد مصطلح المثاقفة نظرا لما تعطيه من دلالة العميقة للمفهوم، فالمثاقفة قريبة جدا من مفاهيم حديثة لها صلة مباشرة بأحداث الواقع الذي نواكبه ، من حيث التفعيل والتنميط، ومن حيث التشابه في التركيبية البنائية للمفهوم أو نقول بصورة أدق من حيث مضامين المعادلة ، وهنا نقصد العولمة كواحدة من أهم إنتاجات ومفعلات العصر الحديث.

### قائمة المراجع

mendras, H. *elements de sociologie , textes*. Paris: libraire armandi, (1978).

Wadi BOUZAR. *la culture en question*. Paris: silex, (1982).

آدم كوبر. *الثقافة التفسير الانتروبولوجي* ، ترجمة : تراحي فتحي . الكويت : المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، (2008).

ايف ميشو. *ما الثقافة* ، جامعة كل المعرفة، جزء 6. القاهرة : جامعة كل المعرفة، (2006).



## منطلقات اقتران الثنائية الثقافية الحضارية

- بونت بيار، و ايراز ميشال .معجم الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا ، ترجمة :مصباح الصمد .لبنان :  
الطبعة الأولى، (2006).
- جون ستوري .التّظيرة الثقافية والثقافة الشعبية ، ترجمة : صالح خليل أبو أصبع وفاروق منصور .  
أبو ظبي :هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، (2014).
- حسن محمد رشوان .الثقافة " دراسة في علم الاجتماع الثقافي ." مصر :مؤسسة شباب الجامعة،  
(2006).
- حسين مؤنس .الحضارة . الكويت :عالم المعرفة، (1978).
- دوني كوش .المفهوم الثقافي في العلوم الاجتماعية ، ترجمة :مقداد قاسم .دمشق :إتحاد الكتاب  
العرب، (د ت).
- روحي غارودي .حوار الحضارات .بيروت :عويديات للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، (1999).
- زكي ميلاد .المسألة الثقافية من أجل بناء نظرية في الثقافة .بيروت :مركز الحضارة لتنمية الفكر  
الإسلامي، الطبعة الثانية، (2010).
- عاطف محمد غيث .قاموس علم الاجتماع .مصر :دار المعرفة الجامعية، (2006).
- عبد الرزاق الداوي .في الثقافة والخطاب عن الحرب والثقافات .بيروت :المركز العربي للأبحاث و  
دراسة السياسات، (2013).
- غريب عبد الكريم، و وآخرون .التواصل والثقافة .الدار البيضاء :منشورات علم التربية،  
(2010)
- مالك ابن نبي .مشكلة الثقافة .دمشق :دار الفكر، الطبعة الرابعة، (2000).
- محمد أحمد بيومي .علم الاجتماع الثقافي .مصر :دار المعرفة الجامعية، (2006).